أمثلة من الأضرحة الصوفية المغمورة في بغداد (دراسة اثرية)

أ.د. سعدي إبراهيم الدراجي
جامعة بغداد- مركز إحياء التراث العلمي العربي

المستخلص

تُعنى هذه الورقة بدراسة أمثلة من الأضرحة المغمورة في بغداد، وهي كثيرة أخترنا منها ثلاثة أضرحة هي: ضريح الشيخ محمد الازهري، وضريح قليج أرسلان، وضريح ابراهيم الفضل.

وعلى الرغم من قدم هذه الاضرحة الثلاثة واهميتها التاريخية والحضارية، إلا أنها مهملة ولم توثق سابقا في دراسة علمية اثارية. لهذا سعى الباحث إلى توثيق هذه الاضرحة الثلاثة بدراسة وصفية تحليلية اعتمدت على الزيارات الميدانية، ووضع مخطط لكل ضريح يبين شكله وقياساته بدقة، وتعزيز ذلك بالصور الفوتوغرافية. فضلا عن دراسة الشواهد والكتابات التي وجدت على قبور أصحاب الاضرحة موضوع الدراسة وتفريغ الزخارف والكتابات المنفذة بشكل لوحات فنية، أملاً في حمايتها من أعمال الهدم والتغيير التي تقوم بها بعض المؤسسات الحكومية.

لقد توصلت الدراسة إلى نتائج يرجو الباحث أن تكون مفيدة في مجال الدراسات الأكاديمية المتخصصة بالآثار الإسلامية المتأخرة، بوصفها توثق لمعالم مهمة في بغداد؛ وتُسهم في الكشف عن جوانب مهمة في العمارة الدينية لجعلها حلقة في سلسلة الأضرحة المسجلة في عالم العمارة.

الكلمات المفتاحية: الأضرحة، المساجد، القباب، الشواهد.

Examples of submerged Sufi shrines in Baghdad (an archaeological study)

Prof. Dr. Saadi Ibrahim Al. Darraji
University of Baghdad – Center for the Revival of Arab Scientific Heritage
saadiib@yahoo.com

Abstract

This paper is concerned with studying examples of submerged shrines in Baghdad, and they are many, from which we chose three: the

tomb of Sheikh Muhammad al-Azhari, the tomb of Qilij Arslan, and the tomb of Ibrahim al-Fadl.

Despite the ancient and historical importance of these three tombs, they were neglected and were not previously documented in an archaeological scientific study. That is why the researcher sought to document these three mausoleums with a descriptive and analytical study that relied on field visits, and to develop a plan for each mausoleum showing its exact shape and measurements, and to reinforce that with photographs. As well as studying the tombs and writings that were found on the graves of the owners of the tombs under study and emptying the decorations and writings executed in the form of artistic paintings, in the hope of protecting them from demolition and change carried out by some government institutions.

The study has reached results that the researcher hopes will be useful in the field of academic studies specialized in late Islamic antiquities, as they document important landmarks in Baghdad; It contributes to revealing important aspects of religious architecture to make it a link in the chain of shrines recorded in the world of architecture.

Key words: Shrines, mosques, domes, tombstones.

المقدمة

تحتفظ مدينة بغداد بثلة من الأضرحة المشيدة فوق قبور العلماء والصالحين، بعضها مسقف بقباب قديمة مبنية في العصر العباسي، منها على سبيل المثال ضريح عمر السهروردي في المقبرة الوردية (الشيخ عمر) وضريح زمرد خاتون في مقبرة الشيخ معروف، فضلا عن اضرحة مبنية أو مجددة في العصر العثماني منها ضريح أبي بكر الشبلي وضريح محمد فاضل الداغستاني في مقبرة الخيزران. وأضرحة أخرى كثيرة من أول العهد الوطني لعلماء وشخصيات عسكرية ومدنية معروفة.

بيد أن هناك مجموعة من الاضرحة المغمورة ملحقة ببعض المساجد والتكايا والمدارس، وجُلها لعلماء عرفوا بآثارهم من رجال صالحين أصحاب الطرق القديمة كالقادرية والرفاعية والبكتاشية والمولوية والبدوية والنقشبندية. ومعظم الاضرحة المذكورة مزودة بشواهد تنطق بأسمائهم وصفاتهم ومكانتهم الاجتماعية. بعضها زُين بزخارف تناغمت وخط الثلث أو

الخط النسخي، حتى أصبحت بعض الشواهد لوحات فنية جذابة لما تحمله من ثراء يعكس ذوق الفنان وحسه المرهف.

إن الفائدة من دراسة هذا الموضوع تكمن في توثيق أمثلة طيبة من الاضرحة والشواهد التي مازالت قائمة في داخل الابنية الدينية، ودراستها سوف تحفظها من الضياع وتسهم في أحيائها، وتساعد المعنيين في حقل الاثار على إدراك أهميتها التاريخية والحضارية بوصفها ثروة في مجال العمارة والفنون، ومن ثم جعلها حلقة في سلسلة الكتابات التذكارية الإسلامية.

إن من أهم أهداف هذا البحث هو الوقوف على قبور رجال اسهموا في بناء المجتمع وحافظوا على ثقافته. من علماء وشعراء ومفكرين، فضلا عن بيان حالة الاضرحة التي تعرضت الى الهدم والتخريب، إذ أن بعضها كان ضحية تطور التخطيط العمراني الذي شهدته مدينة بغداد في الحقب الأخيرة. الأمر الذي شجع الباحث على توثيق الأضرحة والشواهد التي يعود بعضها إلى العصر العثماني خوفا عليها من الضياع. ولما تحمله من قيمة فنية عالية في مجال العمارة والخط والزخرفة. ومن أهم هذه الاضرحة:

١- ضريح الشيخ محمد الأزهري في جامع الخاصكي:

يعود سبب انشاء هذا الجامع إلى وجود قبر في هذه البقعة من الارض منسوب لأحد الصالحين هو الشيخ محمد الازهري. الذي خلت مصادرنا العربية من ترجمة شافية له، وكل ما قيل عنه أنه من الاولياء العارفين، قادري الطريقة صاحب كرامات، ووالده من أصحاب الشيخ عبد القادر الكيلاني[١]. وقد ترجم له مرتضي أفندي نظمي زاده (ت١١٣٦هـ) في جامع الانوار وقال عنه "هو أحد الاولياء العارفين، كان فريد زمانه بين أرباب السلوك .... صاحب الشهرة الوافرة بالكرامات الفاخرة، توفي في بغداد ودفن بها في الجامع الشهير بالخاصكي"[٢] ويرجح بعض الباحثين أنه الشيخ الفاضل تاج العلماء أبو البقاء محمد الأزهري الصريفيني من علماء القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي[٣].

اقام الجامع والي بغداد محمد باشا الخاصكي[٤] (١٠٦٧ – ١٠٦٩هـ) بعد أن هدم ديراً أنشأه ثلاثة من الاباء الكبوشيين الفرنسيين في هذا الموضع بالعهد الصفوي الثاني (١٦٢٣ – ١٦٣٨م). وقد وصفت مصادرنا المحلية هذا الجامع بأنه كبير فيه مصلى رحب عليه قبة عالية، مزود بمئذنة رصينة وله صحن واسع فيه نخيلات، وكان مركز العلماء الافاضل وقبلتهم[٥]. وثمة تعميرات أخرى أهمها ما قام به السلاحشور محمد بك سنة (١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م)

١٦٨٢م) الذي أتم نواقصه وجعله على أحسن صورة[٦]، وثبت هذا العمل على لوحة من الرخام باللغة التركية العثمانية كانت معلقة على واجهة المصلى مكتوبة بخط التعليق. ثم رغب في تعميره السلطان عبد الحميد بعد أن آل الى الخراب، فعمرته الاوقاف السلطانية، وأرجعته إلى ما كان عليه، وذلك في سنة (١٣٠٩هـ / ١٨٩١م)[٧]. وقد أضيف إلى الجامع في هذه العمارة مدرسة أستمر فيها التدريس لعقود عدة. ويبدو أن تعمير السلطان عبد الحميد أستمر سنوات طويلة إذ مازالت المئذنة تحمل تاريخ الصيانة (١٣١٠هـ) والتاريخ مثبت عل لوح من القاشاني في أسفل شرفتها. وتاريخ أخر على شاهد قبر الازهري سنة (١٣١٥هـ). وهناك تعمير أخر للجامع أجرته الاوقاف العراقية في سنة (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م). وسنة (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م). وفيها استبدل سقف بيت الصلاة بأخر مستوٍ من الحديد (الشيلمان) والآجر[٨].

واليوم (٢٠١٨) تجري الهيئة العامة للأوقاف صيانة شاملة للجامع، طالت المحراب إذ غلف بألواح حديثة من السيراميك، وكسيت الارضيات بالرخام، ودهنت جدران بيت الصلاة بالدهان الأبيض كما غلفت واجهات الرواق والحيطان التي تحيط بالصحن بالآجر المنحوت وامتدت الصيانة إلى المدخل والمئذنة والقبر أيضا فقد كسي بالرخام.

(الصورة – ١) ضريح محمد الازهري بعد التجديد كما يبدو من الداخل

(المخطط – ١) ضريح الشيخ محمد الازهري في الخاصكي

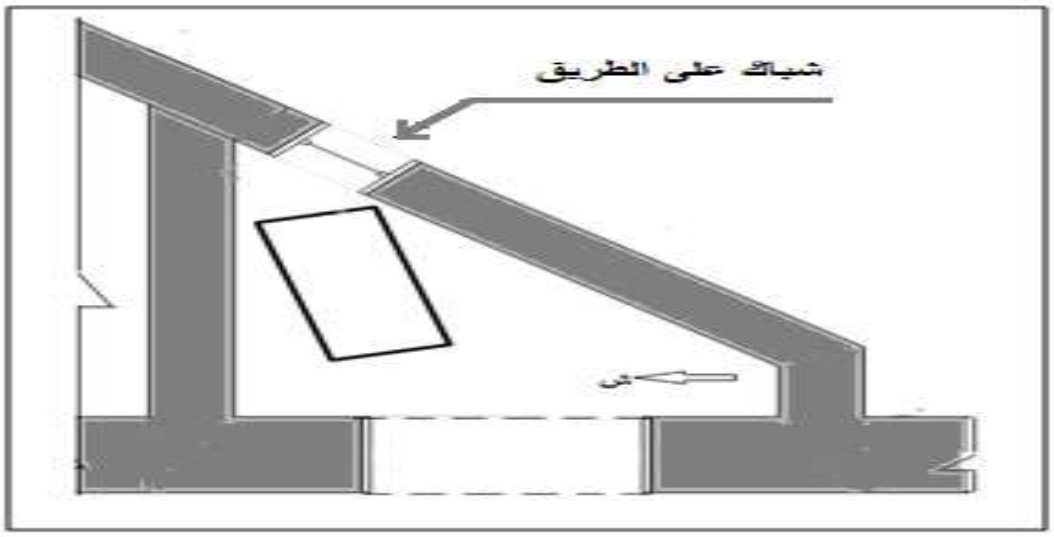

وضريح الشيخ محمد الازهري اليوم عبارة عن حجرة صغيرة متواضعة كائنة على يسار الداخل الى بيت الصلاة، يؤدي إليها مدخل يعلوه عقد نصف دائري عرضه (١.٧٥م) وارتفاعه (٢م) وفتحة المدخل غير مشغولة بباب. (الصورة – ١). والحجرة ليست منتظمة الأبعاد والسبب في عدم انتظام شكلها يعود الى طبيعة ارض الجامع، إذ فرض شكل بيت الصلاة المربع واتجاه قبلته ترك مساحة صغيرة من الارض مثلثة الشكل تقع على يمين الداخل الى بيت الصلاة، ضمت أحداها ضريح محمد الازهري والأخرى خصصت للإمام الجامع، ثم ما لبث أن اصبح جزءا من هذه الحجرات دكاكيين تنفتح على الطريق. (المخطط – ١)

وحجرة الدفن من الداخل مثلثة الشكل تقريبا، أطول أضلاعها يبلغ أربعة أمتار، مزودة بنافذة مسطيلة (١.٦٥×٠.٩٠م) شغلت فتحتها بشباك خشب قديم ينفتح على الطريق، وسقفها مستوٍ معقود بالآجر ومحمول على جوائز من الحديد (الشيلمان)، وارتفاعه يربو على (٢.٩٠م).

ويبدو أن حجرة الضريح في الاصل كانت واسعة، إذ يذكر الدكتور عماد عبد السلام رؤوف بأنها كانت مزودة بنافذتين خشب تنفتحان على الطريق[٩]، ومعنى هذا إن الحجرة أقتطع نصفها أو يزيد والجزء المقتطع أصبح اليوم واحداً من المحلات التجارية الموقوفة على الجامع. وقد تأكد لنا ذلك بعد فحص الجدران ومعاينتها بدقة، إذ تبين أن الجدار الشمالي لحجرة الضريح مضاف في حقبة لاحقة.

إن وجود الشباك المفتوح على الطريق يساعد المارة ولاسيما النساء على زيارة الضريح والنظر الى الداخل من خلال الشباك. ووجود الضريح مؤكد بالشاهد المثبت بالبناء فوق الشباك نفسه من الخارج، والشاهد مجدد في عام (١٣١٥هـ / ١٨٩٧م). اما القبر نفسه فقد جدد بالرخام الابيض في عامنا هذا (٢٠١٨) بواسطة الهيئة العامة للأوقاف السنية، والتجديد شمل الجامع كله كما اسلفنا. أما شاهد القبر فنصه:

١- ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم
٢- ولا هم يحزنون هذا قبر المرحوم
٣- الشيخ محمد الازهري على سيد
٤- الرسل والى روحه الفاتحة
٥- جدد في ١٣١٥[١٠]

(الصورة – ٢) شاهد قبر محمد الازهري

قوام الشاهد قطعة من الرخام الرمادي الداكن مستطيلة الشكل (٤٠×٢٥سم)، مثبت من جهة الطريق فوق شباك الضريح، وعلى الرغم من ارتفاع الشاهد الذي يربو على ثلاثة أمتار فقد تضرر في السنوات الاخيرة بشكل طفيف، إذ حجب السطر الاول منه بعد تركيب

مظلة من الحديد على المحلات المجاورة للضريح. وقد قام الباحث بتصوير الشاهد بعد تحريره وتنظيفه من الاسمنت والعوالق الاخرى التي غطت بعضاً من كلماته.

قسم الخطاط الشاهد الى خمسة بحور متساوية تقريبا، جعل فيها الكلمات مركبة كي تكون الفراغات المخصصة للكتابة قادرة على استيعاب النص. وقد أستفتح الكاتب بالآية الكريمة "ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" ثم اشار الى صاحب القبر ودعا الزائر الى قراءة الفاتحة على روح سيد الرسل محمد (ص) وعلى صاحب القبر الشيخ محمد الازهري. ثم ختم النص بالإشارة الى تاريخ التجديد. (الصورة – ٢)

ومن الملاحظ أن كلمات النص واضحة ومقروءة باستثناء الكلمة الاخيرة من السطر الثالث وقد أجتهد الباحث في قراءتها (على سيد). وهنا يجب أن نشير الى براعة الخطاط في مزج حروف الكلمات وجعلها مركبة متداخلة، وزينها بالحركات والعلامات كالسكون والشدة فضلا عن التزامه بالتنقيط. وقد أجاد الخطاط في توزيع الكلمات داخل البحور المخصصة للكتابة. وقد أعتمد خط الثلث.(الشكل – ١)

(الشكل – ١) تفريغ شاهد محمد الازهري/ رسم الباحث

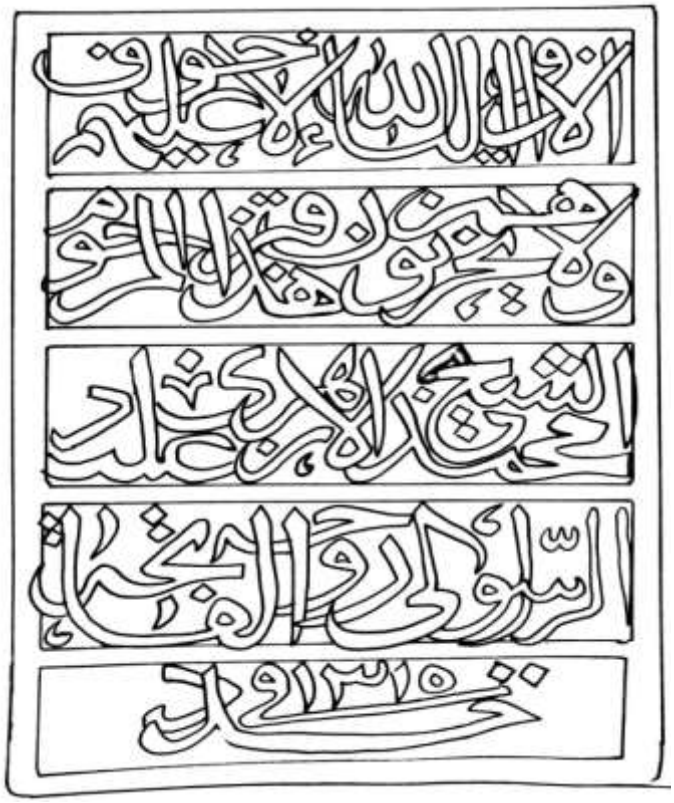

٢- ضريح قليج أرسلان

يقع الضريح المنسوب إلى قليج ارسلان في الجانب الشرقي من بغداد في محلة قديمة كانت تعرف أثناء العصر العثماني بمحلة شاه قولي[١١]، أو محلة شلال شاه قولي[١٢]، وفي هذه المحلة أزقة كثيرة تتقاطع لتصنع ما يسمى محلياً بالعقود منها: عقد (عكد) قليج ارسلان، الذي حدده جيمس فيلكس جونز ضمن هذه المحلة، واسمه نسبة الى ضريح قديم يعتقد بعظهم بأنه يعود إلى العهد السلجوقي كما سيأتي ذكره. وعلى ما يبدو أن هذه المحلة العريقة قد تغير اسمها في القرن الثامن عشر فأصبحت تعرف بمحلة جديد حسن، نسبة للجامع الذي جدده أبو المعالي حسن باشا أيام ولايته على بغداد (١٧٠٤ -١٧٢٣) وزاد فيه وأنفق عليه أموالا كثيرة[١٣]. ومحلة جديد حسن واسعة يحدها من الغرب بناية القشلة ونهر دجلة ومن الشرق محلة الحيدرخانه ومن الشمال محلة الميدان ومن الجنوب شارع المتنبي.

ولا يخفى أن الضريح موضوع الدراسة من المعالم المغمورة في بغداد، فالشواهد المكتوبة باللغة التركية العثمانية الباقية في هذا الضريح لا تفصح عن صاحبها. كما أننا نجهل طراز القبة التي كانت تعلو حجرته في الماضي، إذ جدد البناء بالطابوق الحديث، مما أدى إلى عدم معرفة تاريخ البناء، فضلا عن سكوت المصادر المحلية إذ لم تساعدنا في الوصول إلى معرفة صاحب هذا المقام. فلم يُصوره الرحالة نصوح السلاحي المطراقي الذي رافق السلطان القانوني في حملته على العراق وإيران، في عام (٩٤١هـ . ١٥٣٤م)[١٤]. ولم يذكره نظمي زادة (ت١٧٢١م) في جامع الانوار، كما لم يذكره الرحالة الاجانب. ويعتقد عبد الحميد عبادة أنه من الشهداء الذين صحبوا السلطان مراد في مجيئه إلى بغداد، لكنه لم يقف على ترجمته[١٥]. بيد أن عماد عبد السلام رؤوف يعتقد أنه من الاضرحة القديمة في بغداد ويرجح أنه يعود الى العصر السلجوقي[١٦].

اذن يبقى هذا الضريح مجهولا حتى تظهر له وثائق أو قراءة جديدة لشواهده تميط اللثام عن صاحبه وتاريخ وفاته، وعلى الأرجح أنه مقام لشخصية ترتبط بأحد أولاد جعفر العسكري عليه السلام كما هو مدون على الشاهد وقد لقب بقليج أرسلان أي بالسيف الاسد.

وفيما يخص شكل الضريح وتخطيطه، فيشير النص المكتوب باللغة التركية العثمانية ان هذا الضريح كان مسقفاً بقبة جددها والي بغداد محمد باشا الكوزلكي في عام (١٢٧٣هـ / ١٨٥٧). ويبدو أن الضريح تهدم بالكامل وأزيلت القبة في العقود الاخيرة من عصرنا

الحاضر، وهو اليوم مبني بالطابوق الحديث على شكل حجرة غير مسقفة، لها مدخل مشغول بباب خشب قديم لم يبق منه سوى الاطار الذي يحمل المصراع. واخر من اعتنى بهذا المقام حديثاً، أحد المحسنين، كما هو مكتوب على الرخامة المثبتة على واجهة قبر المتوفى ونصها: (بسم الله الرحمن الرحيم تم أعادة المقام مشكوراً من قبل خادم أهل البيت (ع) عماد فائق العبايجي سنة ٢٠١١م – ١٤٣٢هـ لروحه الفاتحة).

ومما تجدر الاشارة إليه أنه ليس في حجرة الدفن شيء يستحق الذكر سوى الكتابات القديمة التي مازالت في حالة جيدة تقريبا. والكتابات المذكورة مدونة على لوحتين تفصح كل منهما عن أهم التجديدات التي شهدها الضريح في العصر العثماني[١٧].

اللوحة الاولى: وقوامها رخامة مستطيلة مثبتة اليوم فوق عتبة المدخل. وعلى الارجح كانت هذه الرخامة في السابق محمية داخل الضريح القديم. وبعد سقوط قبة الضريح بسبب الاهمال والتقادم، أصبحت اللوحة مكشوفة ومعرضة الى الرطوبة وعوامل التعرية المختلفة، لذلك طمست بعض حروفها. كما طمست كلمات السطر الاخير الذي يحمل عادة تاريخ البناء أو تاريخ التجديد. (الصورة – ٣)

لقد ضمت اللوحة خمسة سطور كتبت بحروف بارزة بخط الثلث، وكلماتها مكتوبة باللغتين العربية والتركية العثمانية ونصها:

١- سعى في عمارة المقام
٢- الشريف قام قليج اسلان
٣- فرزند امام حسن عسكري
٤- موفي اسلندري ....ود
٥- .....

ويمكن تسجيل بعض الملاحظات على كتابة اللوحة الاولى، إذ تشير الكتابة في السطر الاول أن هذا البناء مقام، ويذكر في السطر الثاني (قليج اسلان) والتي تعني سيف الاسد. وفي السطر الثالث وردت كلمة (فرزند) التي تعني أبن أي ابن الامام حسن العسكري. وفي موضوع متصل يقول مصطفى جواد أن العامة اعتادوا ذكر مثل هذه الاسماء، ومنها ألب ارسلان وميكائيل السلجوقي، يضفونها على كل قبر يجهلون صاحبه[١٨]. لذلك يعتقد الباحث

أن هذا البناء مقام لأحد اولاد الامام حسن العسكري أقيم في وقت مبكر من العصر العثماني وشيد فوقه قبة سقطت على الارجح في أوائل القرن العشرين.

لقد حاول الخطاط تزيين اللوحة بأجنحة الطائر فوضعها بين الكلمات في كل السطور ورسمها بوضعيات مختلفة ، وقد ظهرت حروف الكتابة مدهونة باللون الابيض على ارضية خضراء. (الشكل – ٢)

(الصورة – ٣) شاهد قبر قليج أرسلان (الشكل – ٢) تفريغ شاهد قبر قليج أرسلان

اللوحة الثانية: كتبت هذه اللوحة باللغة التركية العثمانية، وقد قسمت على إثني عشر مستطيلاً، ضم كل منها كلمات قوامها على ما يبدو أبيات من الشعر نقشت حروفها بشكل بارز بخط الثلث (الصورة – ٤). ويرد في هذا النص اسم رشيد باشا الذي امر بتجديد المقام في عام (١٢٧٣هـ)، والمقصود برشيد باشا هنا والي بغداد محمد باشا الكوزلكي الذي توفي في شهر ذي الحجة سنة (١٢٧٣هـ) الموافق شهر أب (١٨٥٧) كما ينطق شاهد قبره، ودفن خلف قبة أبي حنيفة النعمان.

(الصورة – ٤) لوح تجديد محمد باشا الكوزلكي لضريح قليج ارسلان

وقد وردت في الشاهد اسماء اخرى منها صاحب هذا المقام (قلج ارسلان مزاري افندي يابو فاطمة) وبعض الكلمات في الشاهد للأسف مشوهة. وفي اعتقادي لو قُرأت هذه الكلمات لأفصحت عن الاسم الحقيقي لصاحب القبر الملقب بأبي فاطمة.

ومهما يكن من صعوبات تعتري قراءة هذا اللوح التأسيسي، أملي أن يهيأ الله من يتصدى له من الباحثين المجيدين للغة التركية العثمانية فيقف على رموزه وأسراره.

٤– ضريح سيد ابراهيم الفضل

من الاضرحة القديمة في بغداد بنى عليه والي بغداد حسين باشا السلحدار (١٦٨١–١٦٨٤م)[١٩] جامعاً كبيراً ومدرسة بعد أن شارف الضريح على الاندثار. وقبل ذلك كان الكتخذا عوض آغا قد بدأ في اعماره فخصص له المبالغ الوافية وأعد كل ما يحتاج إليه البناء[٢٠] وبعد عزل الكتخذا ونفيه إلى البصرة أتم الجامع الوالي حسين باشا ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف باسمه.

وحظي الجامع برعاية أمير المنتفق منصور باشا السعدون فجدده في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٢١]. وفي سنة (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م) عمرة وعمر منارته أحد مأموري دائرة الرسومات في بغداد المدعو حسين أفندي الأفغاني. ثم شهد الجامع صيانة كبيرة قامت بها الاوقاف في عام (١٣٦٨هـ / ١٩٤٨م) كما هو مثبت على واجهة مدخله الرئيس. بعدها أهمل ولم يلتفت اليه أحد على الرغم من أوقافه الكثيرة المحبوسة عليه. وهو اليوم (٢٠١٨م) في حالة سيئة للغاية له امام ومؤذن ولا يوجد من يصلي فيه بوصفه آيل الى السقوط ومهدد بالاندثار[٢٢].

وفي الجامع سقاية واقعة في الدرب الغربي فيها شباك يتناول منه العطاشى الماء، لا أثر لها في وقتنا الحاضر وكان حسين باشا قد أوقف عليها أوقافاً عدة. وفي الجامع مدرسة درس فيها أفاضل علماء بغداد في العصر العثماني المتاخر العلوم العقلية والنقلية وعلوم القرآن، وبقيت ابوابها مشرعة لطلاب العلم حتى عام ١٩٦٠. (الصورة – ٥)

(الصورة – ٥) واجهة جامع حسين باشا

يشغل الجامع مساحة كبيرة من الأرض شيد عليها مجموعة من الابنية أهمها بيت الصلاة وهو في الوقت الحاضر مهدم بالكامل حيث سقط سقفه المغطى بمجموعة من القباب المنخفضة، حتى أصبح بعد أن ترك كومة من الانقاض (الصورة – ٦). وهناك مصلى صيفي بناؤه متأخر معقود بالشيلمان، وبجانبه قاعة مستحدثة للصلاة بدل البيت العتيق مزودة بمحراب. ويحتفظ الجامِع بمجموعة من الحجرات تقع على يمين الداخل تتكون من طابقين كانت في مطلع القرن العشرين جزءا من المدرسة الدينية، فضلا عن مواضي وصحن واسع تتوسطه دكة عالية كبيرة للصلاة وحولها مجموعة من النخيلات تدل على وجود حديقة نضرة كانت يوما تضفي على المكان بهجة وجمال. ومن الملاحظ أن جميع الابنية المذكورة آيلة الى السقوط في الوقت الحاضر بما فيها الضريح. وهو مهدد بالزوال بسبب الاهمال وارتفاع

الرطوبة في جدرانه. ليس هذا فحسب بل أمتدت المخاطر الى مئذنته الاسطوانية بعد سقوط جزء من شرفتها المطلة على الزقاق.

(الصورة – ٦) بيت الصلاة مهدم

عمارة الضريح:

من الطبعي ان تكون التعميرات التي أجريت على الجامع في مختلف الحقب التاريخية قد طالت الضريح موضوع البحث، كما يتضح ذلك من تنوع مواد البناء المستعملة في صيانة حجرة الضريح، ولاسيما تنوع الآجر واختلاف قياساته. فالآجر القديم المربع (٢٠×٢٠×٥سم) يمثل أصل البناء العثماني، وثمة آجر أخر مربع أعتمد في صيانة الضريح في أواخر العصر العثماني. أما الآجر الحديث (الانكليزي) ومعه الاسمنت فيمثل الصيانة التي شهدها البناء في القرن العشرين.

ينسب الضريح الى شخص مجهول الهوية أسمه إبراهيم الفضل، وقد دارت حوله مناقشات كثيرة بين المحققين، فمنهم من نسبه خطأ الى آل البيت وعده من أولاد الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام[٢٣]، ومنهم من عده من رجالات بغداد وعلمائها في العصر العثماني أو قبله[٢٤]. قال عنه مرتضي نظمي زادة (ت١١٣٤هـ) "انه من السادات، ومن الاولياء ذوي الكرامات، ومدفنه في بغداد يجتمع فيه الفقراء، ويأوي إليه الغرباء"[٢٥].

يقع الضريح في محلة الحيدرخانه، يوصل إليه طريق ملاصق للجدار الغربي لجامع الحيدرخانه، والطريق المذكور بعد عشرات الأمتار يتفرع إلى فرعين شرقي وغربي وكلاهما يؤدي إلى جامع حسين باشا السلحدار.

يتموضع الضريح بين بيت الصلاة العتيق والمدرسة، على يمين الداخل إلى الجامع من مدخله الغربي. وقوامه حجرة مربعة الشكل تقريبا طول ضلعها من الداخل (٥.٢٠م)، يؤدي إليها مدخل مشغول بباب خشب مفتوح في الضلع الشمالي.

أنمازت الجدران الاربعة لحجرة الضريح بثخنها الذي يربو على (٩٠سم)، وهي معززة بعقود مدببة وجدت للمساعدة في رفع القبة، وقد سدت هذه العقود في وقت لاحق بجدران لتجنب سقوط القبة.

أما القبة نفسها فهي منخفضة، أقامها المعمار بعد أن حول الجزء العلوي من القاعدة المربعة إلى شكل دائري بواسطة أربع مثلثات ركنية كبيرة ليسهل بذلك جلوس القبة، التي لا يزيد ارتفاعها اليوم عن (٤م) بسبب عمليات الدفن المتكررة التي أجريت في محاولة للتخلص من الرطوبة. وقد زودت حجرة الضريح بنافذتين ابعاد الواحدة (١.١٠ × ٠.٩٠م) الاولى مفتوحة في الجدار الجنوبي والثانية في الجدار الشرقي. (المخطط – ٢)

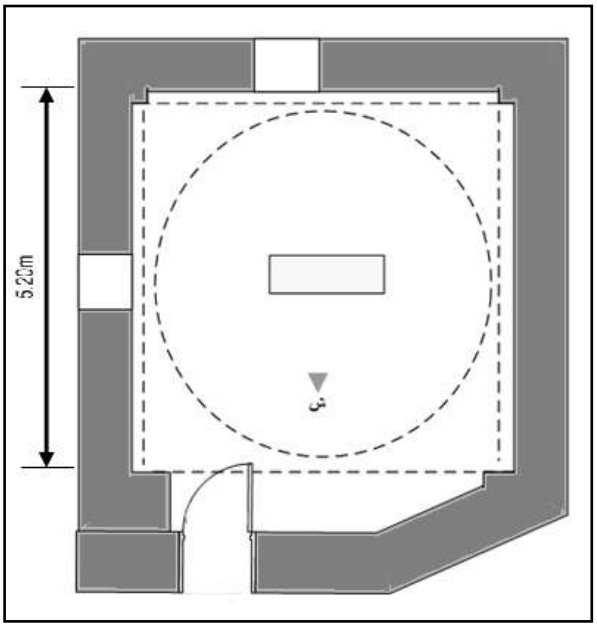

(المخطط –٢) ضريح أبراهيم الفضل

ان تعرية الجدران وباطن القبة من الجص اتاحت للباحث تمييز الاصيل من المجدد والقديم من المضاف، والوقوف على طريقة البناء وطبيعة المواد المستعملة فيه، وكشفت أيضا عن الترميمات الكثيرة التي شهدها الضريح على مر العصور. وعلى الارجح ان القبة التي تعلو حجرة الضريح أصلية تزامن بناؤها مع بناء الجامع في القرن السابع عشر الميلادي. لكنها اليوم آيلة إلى السقوط كلية بعد أن سقط جزء منها يقع في أعلى الزاوية الجنوبية الشرقية. (الصورة – ٧)

(الصورة – ٧) قبة الضريح من الداخل / تصوير الباحث (٧ / ٧ / ٢٠١٨)

ومن المفيد ذكره في هذا التوثيق، أن الجدارين الشمالي والشرقي مغلفان من الداخل بالآجر الحديث والإسمنت. وعلى الارجح ان هذا العمل هو من جملة الترميمات الاخيرة التي قامت بها الاوقاف في سنة (١٩٤٨م) كما اسلفنا. وهذه المحاولة كانت عبارة عن اجراء ترقيعي لتلافي عدم سقوط القبة. بغض النظر عمّا تحدثه الجدران الساندة من تشويه للأثر نفسه.

يتوسط حجرة الضريح قبر ينسب إلى السيد إبراهيم الفضل وهو دارس لكنه مغطى بصندوق خشب عادي مدهون باللون الاخضر يخلو من جميع ضروب الزينة. ويوجد بلصق الضريح من الجهة الغربية ثلاثة قبور قديمة من أسرة واحدة لعلهم من مجاوري الجامع وخدامه. عليها شواهد مجددة أقدمها ينسب الى السيد ابراهيم بن السيد عبد الوهاب البعاج

الكيلاني الحسيني (ت١٣٣٣هـ)، والثاني لعبد الوهاب بن السيد يوسف البعاج (ت١٣٣٤هـ)، والثالث لعيسى بن السيد عبد الوهاب البعاج وتاريخه مطموس. (الصورة – ٨)

(الصورة – ٨) ثلاثة قبور بلصق الضريح

الخاتمة:

وثقت الدراسة في هذا البحث ثلاثة أضرحة هي: ضريح الشيخ محمد الازهري في جامع الخاصكي، وضريح قليج أرسلان الواقع في محلة جديد حسن، وضريح ابراهيم الفضل في محلة الحيدر خانه. علماً أن هذه الاضرحة ومعها أضرحة أخرى كثيرة في بغداد ما زالت مغمورة لم يلتفت اليها المعنيون في الدراسات العمارية والاثرية.

ركزت الدراسة على ثلاثة جوانب يمكن تلخيصها بالنقاط الاتية:

١- الجانب التاريخي: وقد عالج سيرة أصحاب الاضرحة الثلاثة، بالاعتماد على المصادر التاريخية، وما توافر فيها من معلومات تكاد تكون شحيحة. والمصادر لا تجيب على كل الاسئلة التي يطمح الباحث معرفتها ولاسيما سنوات الوفاة والاثر العلمي والفكري لأصحاب الأضرحة.

٢- الجانب التخطيطي والعمراني: لقد سعى الباحث الى توثيق الاضرحة الثلاثة بدراسة وصفية تناولت تخطيطها وعمارتها معززة بالرسم والصورة. ومتابعة حالة هذه الاضرحة وشكلها في العقود الماضية، وتوثيق ما شهدته من أضافات وتجديدات، وما آلت اليه في عصرنا الحاضر.

٣- الجانب التحليلي: ويشمل تحليل بعض العناصر الزخرفية ولاسيما شواهد القبور التي أرخت لبعض الاضرحة موضوع الدراسة وما شهدته من تجديدات قام بها ولاة بغداد او هيئة الاوقاف. وقد جرى تفريغ الكتابات المنفذة على شواهد قبورهم. في محاولة لبيان شكل الحروف ومعرفة انواع الخطوط المعتمدة في كتابتها.

ويمكن حصر القواسم المشتركة بين الاضرحة في بغداد بالعناصر العمارية الرئيسة. ومن أهمها القباب، فمعظم الاضرحة بالأصل عبارة عن حجرة مربعة تعلوها قبة مبنية بالآجر. بيد أن بعض الاضرحة طالها التجديد فتغير شكلها وسقوفها.

هوامش البحث

١ – عبد الحميد عبادة، العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف،، أنوار دجلة، بغداد، ٢٠٠٤، ص٣٦٤.

٢ – عيسى صفاء البندنيجي، جامع الانوار في مناقب الأخيار، تحقيق أسامة النقشبندي ومهدي عبد الحسين النجم، دار الكتب العلمية، بغداد، ٢٠١٣، ص٥٨٠.

٣ – مصطفى جواد، باب المكاتبة والمذاكرة، مجلة لغة العرب، ج٨، السنة ٩، ص ٦١٣.
عبد الحميد عبادة، المرجع السابق، ص٣٦٤، هامش٣.

٤- هو محمد باشا الخاصكي تخرج من البلاط الهمايوني برتبة جوق دار وذلك في سنة (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م) وصار رئيس الحرس، ثم عين واليا على الشام، وبعدها نقل واليا على مصر فبنى فيها جامع عرف بجامع ابو النور، ثم عزل وعين على الشام للمرة الثانية، وفي سنة (١٠٦٧هـ/١٦٥٦م) أصبح واليا على بغداد. عبد الحميد عبادة، المرجع السابق، ص٣٦٣.

٥ – محمد سعيد الراوي، خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، دار الكتب العلمية، بغداد، ٢٠١٣، ص١١٨.

٦ – نظمي زادة مرتظي، كلشن خلفا، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧١، ص ٢٥٦.

٧ – محمود شكري الآلوسي، تاريخ مساجد بغداد وآثارها، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٣٤٦هـ، ص٣٧

٨ – نقل من جامع الخاصكي إلى المتحف العراقي أثران مهمان أولهما محراب يعتقد بأنه محراب جامع المنصور في المدينة المدورة، وثانيهما شباكين خشبيين يمثلان نوعاً من الصناعة العراقية القديمة. محمد سعيد الراوي، المرجع السابق، ص١٢١، هامش ٢.

٩ – المرجع نفسه، ص١١٧، هامش٣

١٠ – هناك من قرأ التاريخ (١٣١٠) والصحيح (١٣١٥)، وصعب عليه قراءة السطر الثالث. أنظر: مصطفى جواد، مجلة لغة العرب، ج٨، السنة ٩، ص ٦١٣. عبد الحميد عبادة، المرجع السابق، ص٣٦٤، هامش٣.

١١ – جيمس فيلكس جونز، بغداد في منتصف القرن التاسع عشر ترجمة عبد الهادي فنجان، دار ومكتبة عدنان، بغداد ٢٠١٤، ص٧٢.

١٢ – مصطفى جواد واحمد سوسة، دليل خارطة بغداد المفصل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، ص٢٧٢.

١٣ – محمود شكري الالوسي، المرجع السابق، ص٣١

١٤ – عماد عبد السلام رؤوف، العراق كما رسمه المطراقي زادة سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ٢٠١٤، ص١٤٥.

لقد رسم نصوح المطراقي قبة مخروطة ونسبها الى قليج أرسلان، وفي حقيقة الأمر هي قبة الاخلاطية التي كانت قائمة على شاطئ دجلة قرب محلة الجعيفر الحالية، وكانت القبة مبنية على تربة سلجوقي خاتون (ت٥٨٤هـ) زوجة الخليفة الناصر لدين الله العباسي. وقد أدرك الرحالة نيبور سنة ١٧٦٦م هذه القبة، ونسبها الى والد سلجوقي خاتون قليج أرسلان الثاني السلجوقي وكان ملك بلاد الروم (اسيا الصغرى)، وذلك لعفاء اسم السيدة المذكورة وبقاء اسم والدها على بعض جدران التربة، قال نيبور: ان الملك قليج ارسلان ابن الملك مسعود السلجوقي قد بنى في سنة ٥٨٤هـ رباطاً للدراويش البكتاشية وهو اليوم عمارة عتيقة شاهقة، على مدخلها كتابة اصابها كثير من التلف وبقي منها (.... الملك العادل قليج ارسلان ابن الملك مسعود بن العادل قلج ارسلان من طائفة سلجوق وذلك في سنة اربع وثمانين وخمسمائة. وآيات من القرآن الكريم) والصحيح الذي هو في الاصل "سلجوقي خاتون بنت الملك العادل ..." انظر مصطفى جواد، الربط البغدادية واثرها في الثقافة الاسلامية، مجلة سومر، م١٠، ١٩٥٤، ص٢٣٤

١٥ – عبد الحميد عبادة، المرجع السابق، ص٢٦٦.

١٦ – مقابلة شخصية مع د. عماد عبد السلام رؤوف في استانبول على هامش المؤتمر الدولي حول بغداد العثمانية، المنعقد بتاريخ ٢٦ / ١٢/ ٢٠١٩.

١٧ – للأمانة العلمية يجب أن نذكر بأننا لم نستطع الوصول الى هذا الضريح ومشاهدته عن كثب، بوصفه قائما بين البيوت القديمة التي احاطت به من كل جانب، وربما تجاوزت بعض البيوت المذكورة على ارضه فعزلته بجدر حديثة. والقانطين اليوم في هذه البيوت البسيطة يمنعون الدارسين من مشاهدته. ولأهمية هذا الضريح وقدمه وددنا توثيقه ليكون حلقة في سلسلة الأضرحة البغدادية، معتمدين على مجموعة من الصور التي ألتقطها الاخ زين الدين النقشبندي قبل سنوات عدة.

١٨ – مصطفى جواد، الربط البغدادية، ص٢٣٧.

١٩ – بدأ حسين باشا السلاحدار حياته في البلاط العثماني حاملا مفاتيح السلطنة، ثم عين رئيسا للسياسيين وآمرا للإصطبل، ثم تقلب في الناصب حتى عين واليا على حلب، وبعدها واليا على بغداد في غرة محرم سنة (١٠٩٢هـ / ١٦٨١م) وعزل عنها في (٢٠ جماد الاولى سنة ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م). عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٥، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٢٥– ٢٠٠٤، ص١٤٣.

٢٠ – المرجع نفسه، ج٥، ص١٢٦.

٢١ – يعقوب سركيس مباحث عراقية، القسم الثالث ، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨١،ص١٨٠

٢٢ – زرته أول مرة برفقة زميلي د. سالار علي خضر بقصد توثيق الضريح في يوم السبت الموافق (٧ / ٧ / ١٩١٨). وقبل سنوات عدة زاره الدكتور عماد عبد السلام رؤوف ووصف حالت الجامع وجمع عنه معلومات دقيقة ذات قيمة علمية. أنظر محمد سعيد الراوي، خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، ص٢٩٢، هامش١.

٢٣ – شاهد عبد الحميد عبادة (ت١٩٣٠م) لوحة من القاشاني كانت مثبتة على حجرة الضريح من الخارج تحمل تاريخ سنة (٧٢٣هـ)، وتنسب القبر الى ابراهيم بن الحسن المثنى عليه السلام المتوفي سنة (١٤٥هـ) بالكوفة، وقد أنكر ذلك.

٢٤ – أنظر عن هذا التحقيق، عبد الحميد عبادة، العقد اللامع، ص٢٣٩.

٢٥ – عيسى صفاء الدين البندجي، جامع الانوار ، ص٦٠٥.